● شجرة المانجو حاضرة

● بحيرة القمندان

ثنائية الزمن الغائب

الحسيني القصيدة المتوهجة في موروث القمندان الشعري

استطلاع/عبدالناصر الهلالي

الشاعر عبدالكريم العبدلي يتذكر ذلك .. لكنه ما يلبث أن يطلق آهة في الفضاء ثم يردف: كانت أياماً.. يعد فيها الحسيني من أجمل ما يكون في اليمن .. اجتماع الخضرة المزينة بالزهور والورود والفاكهة كانت الحاضرة الوحيدة في غياب السياسة .. كان الشاعر عبدالكريم حينها صغيرا لكن أحاسيس الطفل جعلته يرسم الكلمات على جدران الحاضر علّه يبقى ولو بالكلمات على أقل تقدير..

عبدالكريم العبدلي الذي يعيش الآن في منزل قديم بحوطة لحج .. لا يملك إلا قلماً مرتعش الأنامل .. وعود الطرب يستغيثه إذا ما أرقه المنزل بجدرانه الأربعة .. وذاكرة لم يتبق منها إلا القمندان والحسيني الثنائية الجميلة في الزمن الغائب.

نافذة لحج الخضراء

● قبل أن لحج لتكون محطتي الأولى في المشوار الصحفي .. لم أدرك ماذا يعني الحسيني للكثيرين ربما لأنني أدمنت العيش في الجبل وهناك لم نر الخضرة إلا في فصل الصيف .. لكني ما لبثت كثيرا في هذا الجهل بالأشياء .. لأن الحسيني والقمندان ثنائية اللسان في لحج .. لا تستطيع أن تذكر شيئا دون ذكرهما .. حتى حسبت أن لحج هي الحسيني والقمندان وما هنالك لابعدو أن يكون كمبارس وعندما تذهب إلى عدن تنظر البحر اللامتناهي .. تعود إلى الوراء.. قبل أن تلج الحسيني الباب المفتوح على عدن .. تجتمع في ذاكرة الزائر العالم بالمكان نافذة اليمن على العالم .. عدن .. ولعل هذه النافذة صدر عبرها إلى الهند الكثير من خضروات وفواكه الحسيني أيام كان الحسيني تحت يد القمندان .. الرجل الذي جمع بين الاستزراع .. والشعر والفن.. فسما بقيم الجمال والحب .. واستطاع أن يكون البستان الفاضل ، وليس المدينة الفاضلة وإن كان الأول هو البداية لرسم ملامح الحياة السامية إلى مصافي الأدمية .. ولا يعني أن أول من زرع الحسيني هو القمندان.

حسب تأكيدات الشاعر عبدالكريم العبدلي .. لأن زراعته تعود إلى عام (٣٩٠هـ و٣٩٨هـ) وكان عبدالكريم فضل سلطان لحج حينها أول من بذر النبتة الأولى في الحسيني مستغلا بذلك الأرض الشاسعة في بقعة الجروبة .. ووفرة مياه السيول القادمة من أعالي الجبال عبر وادي تبن .. أضف إلى ذلك وجود نبوتين كانتا تضخان الماء بغزارة الأمر الذي ضمن استمرارية الخصب في أول بقعة بالحسيني.

ويضيف الشاعر عبدالكريم العبدلي أن السلطان اختار الحسيني ليكون بهذا الحجم من البساتين نتيجة لقرب وديانه من رأس الوادي الذي يتفرع منه واد صغير وواد كبير .. وهذان الواديان يغذيان وادي تبن بكامله حتى وقتنا الحالي .. الذي أفاد تربة الحسيني وبقاءها خصبة هو الطمي المصحوب مع السيول.

فواكه نادرة

ويلفت العبدلي: إلى أن أهم الأصناف النادرة التي حظيت بالتوسع الكبير في استزراعها بعد أن جلبها القمندان من الهند هي (القنص -الجامبو- الجميرك) وهذه المحاصيل انتهت من الحسيني بعد وفاة القمندان.

ويذكر فضل عوزر في كتابه القمندان بأن محاصيل أخرى أتى بها القمندان ، منها قصب السكر والعاط الهندي ، والعنبا، والحاقوص، والموز السكري ، ويوسف الهندي ، والبوبيا ، والعنب الرازقي، والرمان) وهذه الأخيرة نجحت زراعتها في بساتين الحسيني ، أضف إلى ذلك ورق التمبل .. كل ذلك ذهب بعد أن ذهب القمندان إلى ربه وبقيت الاصناف المالوفة: مثل المانجو ، والموز، والعباسي، والبوبيا، والزيتون وهي أصناف سائدة في الحسيني .. فضلا عن ذلك فإن الأشجار الكثيرة التي كانت تغطي الطريق من الحسيني إلى المحلة بالاشجار الكثيفة حتى يخال للمرء انه يخترق نفقا اسمنتيا وليس نفقا طبيعيا صاغه الحسيني وإن بقي ذاكرة مفتوحة لأجياله لم تات بعد .. وظل حسرة في عيون كبار السن الذين كثيراً ما يصفون ذلك المنظر الطبيعي بمجرد أن تسالهم عن الكيفية التي كان الحسيني بها.

شاطئ البحيرة

● أشتهر الجانب الغربي من الحسيني بأشعار القمندان حيث كان موقع سكنه هناك وسمي بالبحيرة ..

يانجم على شاطئ البحيرة...

وعند زيارتي إلى ذات المكان لم أجد إلا جدارا طينيا من المنزل الذي كان مكوناً من طابقين .. ومسبحاً تحيطه الأشجار المعمرة والفراغ الذي يملأ جوانبه وهو ما كان يطلق عليه البحيرة أو كما تغنى به القمندان في شعره .. البعض كان يظن أن هذه البحيرة كبيرة نسبة إلى الاسم .. وهي في الحقيقة كبيرة في قلب ووجدان القمندان .. أما في الواقع فهي عبارة عن حوض (ستة في خمسة أمتار) .. في الجهة المقابلة للبحيرة يقع منزل القمندان .. أو بقايا منزله الذي لم تكن له مزايا الفخامة والعظمة.

الفارق بين ماضي البحيرة وحاضرها فراغها من الماء.

المحاصيل كانت تورّد إلى الهند وتمتلئ بها أسواق المعلا والتواهي

الخضرة والشعر

● ويذكر نفس المصدر (كتاب القمندان) أن القمندان اهتم بشؤون البيئة حيث كان ينقب ويبحث في شتى الوسائل والطرق الصحيحة ذات المردود الأفضل الذي يساعد على التنويع ومضاعفة الانتاج .. وكانت المجلات والنشرات العربية والانجليزية خير ما يتزود به القمندان ويسترشد به في هذا الجانب.

ويضيف: انه كان دائم التفكير في وضع التصورات العلمية النافعة التي تهدف إلى تحسين نوعية انتاج بساتين الحسيني ، وتطوره ولا يزال المعاصرون في لحج يذكرون كيف كانت أسواق الفواكه والخضروات في المعلا والتواهي ممتلئة بما كانت تنتجه بساتين الحسيني .. لم يقتصر الحسيني على زراعة الخضروات فقط كما لم يتوقف القمندان عندها فحسب بل استجلب الكثير من النباتات منها نباتات الزينة كالزهور والرياحين والورود .. ولعل زهور الياسمين والنرجس والقرنفل والورود الأخرى ذات الألوان المختلفة عفتها بساتين الحسيني .. فيما كان اللون الأحمر هو السائد وجوده بكثافة.

لم تعد هذه النباتات كما عفتها رياض الحسيني .. انقرضت كما أنها لم تكن موجودة أصلاً.

الفل والكاذي

● وبقيت نباتات الفل والكاذي هي الوريث الشرعي لبقية النباتات، وهي الزهور التي تمتلئ بها أسواق لحج وعدن في فصل الصيف مع هبوط شديد في أسعارها في ما يكون فصل الشتاء هو العكس انتاجاً وسعراً، وكما هو الحال في نباتات الزينة فإن المحاصيل كالخضروات والفواكه هي الأخرى انقرضت، وما بقي منها بكثافة هو المانجو وبعض الفواكه الأخرى.

تراجع الحسيني

● ويذكر فضل عوزر أنه عقب وفاة القمندان بدأت بساتين الحسيني بالتأرجح، وأخذت تتقلص تدريجيا على مستوى أنواع الفواكه باستثناء الموز، والبوبيا، والليمون الحامض، والزيتون، والمانجو .. كما أن العوامل السياسية ساعدت كثيرا في اختفاء الكثير مما ذكر .. وهذه العوامل خططتها السلطات الاستعمارية الحاكمة أيامها .. عندما رفضت سلطنة لحج وقتئذ الموافقة على وجود مستشار بريطاني في لحج .. كما أن السلطات البريطانية كان يهمها كثيرا أن يظل المنتوج متدنياً ومن ثم لا تتمكن السلطنة اللحجية من تصدير الفواكه، والخضروات إلى الهند، ومن ثم يقل المردود المادي، وهذا ما سيجعل السلطنة ترتمي في أحضان السلطة الاستعمارية.

أسباب أخرى للتراجع

● إلى جانب ذلك هناك أسباب وعوامل أخرى ساعدت على التدهور التدريجي للحسيني منها تقليل الاهتمام والعناية من قبل المستأجرين للبساتين مما أضعف الجانب العملي في رفع مستوى الانتاج والتنافس المعتمد لدى بعض المستأجرين للبساتين مما كان يرفع تلقائيا قيمة الايجار السنوي إلى الضعف أحيانا مما ينتج عنه عدم إيفاء المستأجرين المتنافسين لقيمة الايجار السنوية الملزمة .. كما ساعد أيضا في ذلك عدم الأخذ بزمام المبادرة عند تعرض أشجار الفواكه بعدوى الاصابات والآفات الضارة والاسراع بمكافحتها بالإضافة إلى ترك الأعشاب والحشائش سريعة النمو تتكاثر لفترة طويلة دون متابعة قلعها وتنظيف المساحات، وكذا الانتشار المفاجئ للبساتين في مناطق أخرى غير لحج مثل أبين، ولعل هذا السبب هو مَنْ أضعف العمل الذي ساعد على انقراض الحسيني.

إن صدق التنبؤ وارجو ألا يصدق، كما أن هناك عاملاً أقوى هو إخفاء النبوتين .. وقلة جريان السيول إلى الوادي نتيجة شحة الأمطار في فصل الصيف في المناطق الجبلية، وينظر متخصصو المياه إلى أن المدرجات والسدود في أعالي الجبال خففت من كميات السيول المتدفقة إلى وادي تبن ومنها بساتين الحسيني .. إن هذه العوامل مجتمعة لعبت دورا في التراجع التدريجي لبساتين الحسيني .. الحسيني اليوم يعاني كثيرا أو لنقل أجزاء منه تعاني من التصحر إن جاز التعبير .. الحسيني تسعمائة فدان ينظر إليه اليوم رجل الأمس فيصاب بالحسرة والخوف العميق لما آل إليه الحسيني .. أشجار متهالكة، ومنتوج ضعيف بالكاد يغطي نفقات العمال الذين يعملون على استزراع ما تبقى منه من فدادين قادرة على مقاومة التصحر.

في الأخير

● ولكن يظل الحسيني قصيدة متوهجة في أفواه الفنانين والاهتمام به لن يأتي إلا من خلال القراءة الجيدة له، وتفكيك تفاصيلة البنيوية، مقاومة التصحر الذي طال الأرض المجاورة له والمحرومة كلية من مياه السيول طوال فترة موسم الصيف، ونرجو أن يظل العنفوان الاسطوري لبساتين الحسيني .. نابضا ولو في الذاكرة .. وفي ثنايا القصائد القمندانية.

● الاعلاف البديل عن المحاصيل المنقرضة

لم يبق من آثار القمندان سوى جدار طيني لمنزله ، وحوض مائي يعاني من الفراغ

الحسيني تراجع مائة عام إلى الوراء لأسباب طبيعية بعد وفاة القمندان